سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل العاشر

الخروج
من المذبحة

obeikan.com

obeikan.com

١ - مخاوف

توالت دوامة التفجيرات التى ضرب إحداها يوم ٢٣ أبريل حسينيات « مساجد الشيعة» فى مدينة الصدر معقل أنصار التيار الصدرى وجيش المهدى الذى كان قد توارى بفعل قرار قائده وزعيم التيار المثير للجدل والمقيم فى إيران السيد مقتدى الصدر .. إلا أن بيانا اصدره مقتدى الصدر بدعوة « المؤمنين» من رجاله عناصر جيش الإمام المهدى العقائدى إلى التطوع فى مساعدة القوات العراقية غير القادرة على حماية الناس وتشكيل لجان لحماية المساجد عزز المخاوف من «عودة الجيش الضال» الذى عاث فى العراق فسادا وقتلا ليعجل عودة الإمام الغائب عجل الله فرجه .. عزز هذا البيان المخاوف من عودة نشاط عناصر جيش المهدى ومن يستغلها ستارا وغطاء سياسيا نافذا لارتكاب جرائم منظمة من الابتزاز والسرقة والاختطاف والقتل سواء فى العاصمة بغداد أو غيرها من المناطق التى اكتوت بنيران تلك العصابات التى يقول قادتها: أنها جيش عقائدى مهمته نبيلة وهى خدمة الشعب إلا أن هناك من امتطى صهوتها وارتكب الجرائم بإسمها .

نشرت جريدة الحياة الرصينة تقريرا أكدت فيه تلك المخاوف حيث قالت: أن عددا كبيرا من المثقفين الليبراليين في البصرة يخشون من عودة الجماعات والتيارات الإسلامية المتطرفة إلى المدينة مستغلة ما أفرزته الانتخابات البرلمانية من ثقل للتيار الصدري (٤٠ مقعداً).

وأشار صحفي يعمل في احدى وسائل الإعلام العربية فضل عدم الإشارة إلى إسمه إلى أن «واحدة من الصور التي تثير قلقنا أن هذه الجماعات التي سبق أن استغلت الوزن المحلي لمكتب الشهيد الصدر وعمليات جيش المهدي ضد القوات البريطانية قبل عام ٢٠٠٨، وراحت تعتدي على المواطنين وتضيق عليهم حرياتهم، نراها اليوم عادت إلى الشارع وفتحت مقرات لها باسم المدارس الدينية».وتابع، وهو يتذكر كيف كان يكتب قصصه عما كان يدور في البصرة: «كنا نكتب بأسماء مستعارة مرة، ومرة ندعي إننا ننقل الأحداث من مدن قريبة لتحاشي بطشها».المثقفون في البصرة يتداولون القصص ذاتها، ولا يجرؤون على ذكر أسمائهم. يقول أحد الشعراء أن «إعادة فتح بعض المدارس الدينية أو عودة قيادي سابق هنا وآخر هناك من هذه الجماعات إلى حسينيات أو مساجد يجعلنا نتأكد من عودتها إلى البصرة». ويكمل «نحن قلقون فعلاً من استغلال هؤلاء نتائج الانتخابات، وفوز الصدريين بهذا العدد الكبير من المقاعد ليعاودوا نشاطاتهم». مشاعر القلق تزداد سوءاً، عندما يلمس الأهالي سوء الخدمات، ففي جولة «الحياة» في

أهم مركز تسويقي في البصرة وأقدم أسواقها في منطقة الخضارة لاحظت أنها مملوءة بالقمامة وفضلات الخضر والمنتشرة في شارعها الرئيسي غير الصالح للسير بسبب الأضرار البالغة التي أصابت بالأسفلت.رسام تشكيلي تربى في كنف والده الشيوعي قال: «قبل أيام وعندما دعا الصدر إلى تظاهرة ضد الاحتلال في النجف خرج العشرات من الحافلات تقل المئات من انصاره. كان عدد منهم يرددون شعارات وهتافات جلها تهديد ووعيد يطلقونها عند حواجز التفتيش. هذا نذير لا يبشر بخير». وقاد رئيس الوزراء نوري المالكي في شتاء عام ٢٠٠٨ حملة على «الخارجين عن القانون»، في إشارة إلى مليشيا «جيش المهدي» ووقعت معارك ضارية هناك تضاربت الانباء عن تفاصيلها حينها واختلفت الآراء في كفاءة قادتها وانتهت بإقالة قائد الشرطة فيها اللواء الركن عبدالجليل خلف شويلي. وقال العميد السابق في الجيش احمد التميمي : إن «عمليات صولة الفرسان لم تتحقق فيها كل عناصر وسياقات العمل العسكري في ظل ظروف العصيان والتمرد».وزاد : إن «العمليات خلفت في البصرة عداوات وثارات في الجيش والشرطة. عدد كبير من أهاليها قاتلوا الميليشيات وآخرون جمعوا المعلومات وشيوخ عشائر قدموا تسهيلات. وجميع هؤلاء الان من دون حماية».اذاعي بصري علق على المخاوف من عودة المليشيات بالقول: «لقد صدقنا ما قيل لنا بأنها لن تعود. هجوناها في قصائد كثيرة وتشفينا بها بعد صولة الفرسان. ولا ادري كيف سيكون رد فعلها ... انها لا تنسى ابداً». واستدرك «قبل عامين لم نصدق كلام احد قادة صولة الفرسان من أن عناصر الميليشيات انسحبوا إلى الاهوار مسلحين بما يوازي تسليح فرقتين عسكريتين. وقتها قلنا هذا هراء. لن يعودوا ابداً. لكننا الآن مجبرون على تصديق ما كان يشاع من أن خروجهم سالمين إلى الهور كان صفقة».وكان اللواء الركن عبد الجليل خلف شويلي، قائد الشرطة السابق في البصرة توقع في مقابلة مع «الحياة» مطلع عام ٢٠٠٩ «عودة المليشيات وقال أن العشرات منها فروا إلى الأهوار ويمتلكون ترسانة من الأسلحة تكفي لتجهيز فرقتين عسكريتين».

لكن الناطق باسم مقتدى الصدر الشيخ صلاح العبيدي بدد هذه المخاوف وقال لـ «الحياة» إن «أي جهة لن تتمكن مجدداً من استغلال غطائنا وثقلنا السياسي والشعبي بالاعتداء على أي كان، منذ فترة وضعنا آلية عمل لجميع عناصر جيش المهدي في عموم البلاد، من شأنها طمأنة الناس إلى عدم اختلاط الأوراق في الشارع من جديد».وأوضح أن «الآلية تكرس الجهد الثقافي لأبناء هذا الجيش الشريف في عموم العراق وتحدد الذين ينهضون بعمل المقاومة المسلح ضد المحتل، وحصر هذه المهمة بلواء اليوم الموعود على أن تكون ساحة عملياتهم خارج المدن وأن لا يتعرضوا

إلا لمن يعمل مع الاحتلال».وأكد العبيدي تنامي عمليات التهريب في البصرة بعد انحسار دور «جيش المهدي» في مراقبة عمل مؤسسات الدولة بعد «صولة الفرسان» وقال: «أصبحت عمليات التهريب تدار من بغداد بكل أنواعها بما فيها تهريب النفط والنساء».وأضاف: «خلال أكثر من عامين تضاعف عمل المهربين واستشرى أكثر من ذي قبل، ووصل حد الاستهانة بثروات البلاد وقد تجرأ احد موظفي الموانئ على بيع باخرة تحمل الأطنان من السكر ضمن عقود مفردات البطاقة التموينية (...) وفرغت الحمولة في بلد مجاور. أبلغني هذه الواقعة احد مسؤولي وزارة التجارة».

٢ - تطمينات

فى ٢٩ مايو ٢٠١٠ شاركت فى حفل مع صديقى الكاتب العراقى هادى جلو مرعى رئيس مجلس ادارة مرصد الحريات الصحفية أقامته صحيفة البيان الناطقة بلسان رئيس الوزراء نورى المالكى بمقر حزب الدعوة فى بغداد ودار بينى وبين السيد ياسين مجيد المستشار الإعلامى للمالكى وأحد المقربين منه حول ما يجرى على الساحة العراقية والصورة الضبابية التى تغلف المشهد السياسى وحالة عدم اليقين التى تعزز المخاوف من انفلات شامل يطيح بما تبقى من مكاسب أمنية حققتها حكومة المالكى .. وجدوى الإصرار على التمسك بمقعد رئيس الوزراء .. حاولت أن أقترب كثيرا من مناطق محرمة ربما أستطيع رسم صورة واضحة للمشهد العراقى المضطرب أو أحصل على تطمينات لمخاوفى التى تعكسها قراءات للواقع ونقاشات لا تنتهى مع كافة الأطراف بدءا من المسئوولين والقيادات السياسية العراقية مرورا بالزملاء من الإعلاميين والمراقبين السياسيين انتهاء برجل الشارع العادى .

سألت السيد ياسين مجيد حول ما يدور داخل الغرف المغلقة من مشاورات وهل هناك فعلا تحالف حقيقى بين ائتلاف دولة القانون والائتلاف الوطنى العراقى .. هل يضع التيار الصدرى خطا أحمر على تجديد الولاية لنورى المالكى .. ما هى المكاسب التى سيحصل عليها الصدريون فى حالة موافقتهم على إعادة تنصيب المالكى وكلنا يعلم ما بين الطرفين من مخاوف وعدم ثقة بعد موقف المالكى الحازم من تمدد نفوذ الصدر وكسر شوكة جيش المهدى فى مختلف مناطق العراق رغم أن الصدر هو الذى جاء بالمالكى إلى كرسى الحكم .. هل فعلا يمكن أن يعود هذا النفوذ الموازى لنفوذ الدولة وربما يفوقها ضمن صفقة الرضا عن المالكى .. هل يمكن أن تعاود ميليشيات الرداء الأسود الانتشار فى المناطق التى طردتها لترد الضربة بأشد منها وتعيث فى الأرض فسادا .. ما موقف علاوى وائتلاف العراقية من

مسألة تشكيل الحكومة ولماذا كل هذا اللغط حول لقاء الشريكين اللدودين « علاوى والمالكى» وهل سيحل هذا اللقاء كل المشاكل أو يسهم فى خلخلة الأوضاع وإذابة جليد الموقف المتجمد ؟ .. هل يمكن أن يتم تشكيل الحكومة الجديدة قبل بدء الانسحاب الكبير للقوات الأمريكية فى أغسطس من عام ٢٠١٠ وفقا للاتفاقية الأمنية .. ما مدى النفوذ الإيراني وهل حقا أن الجارة الشرقية هى الفائز الأكبر مما يجرى .

عشرات التساؤلات طرحتها على الرجل المقرب من نورى المالكى حتى أتمكن من فهم جزء مما يدور على الساحة وأقترب إلى تحليل أكثر واقعية للمشهد السياسى الذى يؤشر إلى طبيعة مستقبل المشهد الأمنى .

قال لى يا سين مجيد أن الصورة الغائمة سببها كثرة التصريحات من أشخاص لا يعلمون ما يدور داخل الغرف المغلقة .. الحوارات تجرى على قدم وساق بين ائتلاف دولة القانون والتيار الصدرى بعد أن ذاب الجليد وانتهت كل الخطوط الحمراء .. الحوارات مع العراقية يجرى على كافة المستويات .. لم يعد هناك سوى وضع التفاصيل بعد رسم الخطوط العريضة . قال أن المشكلة الرئيسية مع العراقية هو تعدد القيادات وأن المكون السنى داخل القائمة وهو الذى يغلب عليها « ٧٩ مقعدا من ٩١ « يعمل على قدم وساق من أجل تسوية حقيقية للمشاكل العالقة .. أكد أن كل مكون فائز سوف يأخذ حقه كاملا عند تشكيل الحكومة وتوزيع المناصب والوزارات .

سألته هل يستمر نظام الحصص على أساس طائفى وقومى رغم كل ما يشاع عن الدولة الديمقراطية والعمل وفق آليات الدستور .. ابتسم الرجل ليؤكد أنه لا يصلح للعراق الآن سوى نظام المحاصصة وإلا سوف تفقد مكونات هامة مكانها فى منظومة الحكم .. رسم مجيد توزيعا للمناصب وفق آليات الدستور القائمة العراقية أولا تفوز بمنصب رئيس الوزراء وسيتولاه علاوى وهو شيعى .. ائتلاف دولة القانون ثانيا يفوز بمنصب رئيس الجمهورية ويتولاه المالكى وهى شيعى .. الائتلاف الوطنى العراقى ثالثا يفوز بمنصب رئيس مجلس النواب وهو شيعى أيضا .. وتساءل ماذا يتولى العرب السنة والأكراد من المناصب الرئاسية السيادية .. رد « لا شيىء» ولهذا لا مناص من نظام الحصص .. رئيس الوزراء شيعى من دولة القانون ورئيس مجلس النواب سنى من العراقية ورئاسة الجمهورية من نصيب الأكراد .

رغم أن الكلام وفقا لقائله يحمل الكثير من التطمينات ويملك الكثير من المنطق إلا أن الصورة تظل عالقة على حائط التوقعات ويبقى تدخل القوى الإقليمية والدولية فى الشأن العراقى وهو ما لم ينفيه الرجل وثيق الصلة بالمالكى هو المعيار النهائى الذى يتم على أساسه رسم المشهد العراقى طوال السنوات

القادمة .. ويبقى هاجس العودة لقوى تستخدم أجنحة مسلحة شاخصا رغم أى تطمينات تصدر من اشخاص يديرون الحوارات الفاعلة داخل الغرف المغلقة [1].

رغم استمرار هذا الحوار المفتوح لمدة تزيد على الساعة إلا أن الموقف المصرى والدور الغائب كان هو الحوار الأطول .. يتساءل الجميع أين مصر .. هى الوحيدة التى لم تتورط بشكل سلبى فى الشأن العراقى فلماذا هى غائبة عن الساحة .. بعض كلمات الإشادة بالإخوة المصريين وحرص مصر على تواجد سفير لها وان كان تواجدا رمزيا غير ملموس .. رد حاسم من مستشار رئيس الوزراء عن أنه لمس من خلال لقاءاته بالقيادات المصرية وعلى رأسها الرئيس حسنى مبارك برغبة حقيقية فى التواصل إلا أنها مازالت مجمدة لم تترجم على أرض الواقع فى استثمارات وعلاقات مفتوحة وأنشطة متبادلة بين القاهرة وبغداد .

أكد كلام ياسين مجيد ما قاله مساعد وزيرة الخارجيّة الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى جيفري فيلتمان فى تصريحات نشرتها صحيفة الشرق الأوسط قبل لقائى به بيوم واحد أكد فيها أن إيران فشلت في تشكيل حكومة عراقيّة موالية لها فور إجراء الانتخابات العراقيّة، نافياً التقارير «حول قرب انتهاء عمل السفير الأمريكي لدى العراق، كريستوفر هيل، وترك فراغ في السفارة الأمريكيّة إلى حين ترشيح سفير جديد في بغداد».

وأشار فيلتمان في حديثه لصحيفة «الشرق الأوسط» اللندنية إلى «التحديات الكثيرة التي تواجه العراق، ومن بينها حلّ القضايا العالقة بين العراق والكويت، وهي قضية تستعد الأمم المتحدة للإسهام فيها أيضاً، إذ من المرتقب أن يزور الممثّل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في العراق، اد ميلكرت، الكويت الشهر المقبل لهذا الغرض».

وشدد على أن «معالجة هذه القضايا العالقة بين البلدين لا يمكن أن تتم إلا بعد تشكيل حكومة جديدة في العراق، فالتركيز الآن في العراق يجب أن يكون على تشكيل حكومة، وبعد تشكيلها علينا أن نعالج كل هذه القضايا ولكن حتى ذلك الوقت من المهم أن يتخذ العراق والكويت خطوات لتحسين الأجواء بينهما».

وعبّر عن تفاؤله «بتشكيل حكومة تمثّل إرادة الشعب العراقي»، معتبراً أن المبدأ في

(١) أثبتت النتائج على الأرض فيما بعد توقعيات ياسين مجيد حيثي أيد التيار الصدري تولي نوري المالكي رئاسة الحكومة فيما تم التجديدي لجلال طالبان فترة رئاسة ثانية وحصل القيادي السني بالعراقية أسامة النجيفي على رئاسة البرلمان .

العلاقات بين بغداد وطهران هو «أنه يجب أن يكون لدى العراق علاقات وثيقة مع كل جيرانه بناء على الاحترام المتبادل وعلى مبدأ عدم التدخل في سيادة الدولة الأخرى».

وأردف: «سمعت الكثير عن التدخل الإيراني داخل العراق، ولكن لنرى ما حدث بعد الانتخابات، فالكثير من الساسة العراقيين تمّت دعوتهم إلى طهران بعد الانتخابات بهدف بدا وكأن الإيرانيين أرادوا أن يشكّلوا حكومة لبغداد من طهران، ولكن لم يحدث ذلك، بل تمّ رفضه من القادة العراقيين ومن قبل الشعب العراقي وكان هناك الكثير من مقالات الرأي المنتقدة لذلك».

واعتبر أن ذلك «دليلاً آخر على قوّة الوطنيّة العراقيّة وإصرار الشعب العراقي على اتخاذ قراراته بنفسه». ورأى أن «هناك محاولات لتدخل طهران بشؤون العراق، لكن العراقيين وقفوا في وجه تلك المحاولات».

إلا أن تصريحات فيلتمان الذى تكررت زياراته للعراق فيما بعد لم تكن دقيقة وربما كانت منافية للحقيقة .. حيث انتهت بالفعل فترة عمل كريستوفر هيل كسفير للولايات المتحدة بالعراق وغادر بغداد متفائلا رغم كل ما يجرى ليحل محله سفير جديد هو جيمس جيفري الذى تسلم رئيس الجمهورية المنتهية ولايته جلال طالبانى أوراق اعتماده يوم ١٨ أغسطس ٢٠١٠ .. فيما نجحت إيران فى تعطيل الخطط الأمريكية الرامية إلى تكوين تحالف بين القائمة العراقية بقيادة إياد علاوى الفائزة ب ٩١ مقعدا وائتلاف دولة القانون بزعامة نورى المالكى وله ٨٩ مقعدا ضمن ورقة تقدم بها فيلتمان تقضى بتقاسم السلطة بين الرجلين المطالبين بمقعد رئاسة الحكومة وهو تحالف كان كفيلا بإنهاء أزمة تشكيل الحكومة التى استمرت حتى مغادرتى العراق وحتى بعد مرور أكثر من ثمانية اشهر على الانتخابات النيابية فى ٧ مارس ٢٠١٠ .

وقد أكدت « زلة لسان » من نورى المالكى حملت صبغة طائفية قال فيها «إن القائمة العراقية قائمة سنية» مدى قوة النفوذ الإيرانى الذى كان المالكى يحاول الفكاك منه بدعم عربى فشل فى الحصول عليه بسبب موقف السعودية منه وهو ما حاولت إيران إستغلاله من خلال أعادة ترتيب البيت الشيعى والحيلولة دون تولى علاوى منصب رئاسة الحكومة مع محاولات مستمرة نجحت في التقريب بين مكونات التحالف الشيعى « الائتلاف الوطنى وائتلاف دولة القانون» ومنع انفراط عقده رغم الخلافات الظاهرة بين المالكى وعناصر الائتلاف الذين كانوا قد أعلنوا صراحة رفض كل مكونات الائتلاف الوطنى تجديد الولاية له كرئيس للوزارة أربعة أعوام أخرى إلا أن إيران كما يقول صديقنا سرمد الطائى مدير تحرير جريدة العالم لن توفر جهدا في تخريب أي اتفاق

بين ثلاثي «علاوي - الحكيم - الصدر» لأن التصالح العابر لحواجز « اسلامي علماني شيعي سني» يغضب جنرالات طهران كثيرا وهو ما حدث بالفعل وتم ترتيب البيت الشيعي ليفوز نوري المالكي متحالفاً مع الائتلاف الوطني في النهاية .

٣ - انتفاضة الكهرباء

عندما تتجول في العاصمة العراقية بغداد نهارا تستطيع بصعوبة أن ترى صفحة السماء الواسعة بسبب ظاهرة فريدة تتميز بها عاصمة الرشيد منذ دخول القوات الأمريكية إلى ساحة الفردوس إيذانا بإنهيار نظام صدام حسين فى ابريل عام ٢٠٠٣ وهى وجود ملايين الأسلاك المتقاطعة مع بعضها والتى تشكل شبكة تشبه خيوط العنكبوت تمتد بامتداد شوارع المدينة ؛ هذه الشبكة العنكبوتية من الأسلاك التي أتحدى أى شخص فى العالم مهما بلغت مهارته وإمكانياته البصرية أن يحدد مسارها تزود البيوت والمحلات التجارية والمكاتب بالطاقة الكهربائية التى يوفرها أصحاب المولدات الكهربائية الخاصة المنتشرة فى كل الأحياء السكنية والمناطق التجارية سواء الراقية أو الشعبية بنظام إبتكره العراقيون هو « الأمبير» الذى يحدد سعره ملاك هذه المولدات الذين باتوا يشكلون طبقة جديدة من الأغنياء فى العراق .

ويتفاوت المبلغ الذى يدفعه صاحب البيت أو المكتب أو المحل وفقا لعدد الأمبيرات التى يحصل عليها والتى تكفى حاجته بحساب دقيق لاستهلاك كل جهاز موجود بالمكان حيث تصل فى أحيان كثيرة إلى أكثر من نصف مليون دينار عراقى شهريا / حوالى ٤٥٠ دولار بواقع ٢٠ دولارا أمريكيا للأمبير شهريا، ويكفي العائلة المتوسطة العدد من ١٠ إلى ١٥ أمبير شهريا، علما أن هذه الامبيرات لا تكفى لتشغيل جهاز تكييف أو مدفأة وإنما تكفى لتشغيل ثلاجة ومجمدة / ديب فريزر/ وبعض المراوح والأضواء وهو ما أدى إلى أن يستخدم العراقيون وسائل أخرى للتبريد مثل جهاز التكييف الذى يستهلك حوالى ٧ أمبيرات والمبردة المائية / تكييف الصحراء/ التى تستهلك من ١ إلى ٣ أمبيرات صيفا والمدفأة النفطية / الصوبه/ التى تعمل بالنفط الأبيض / الكيروسين / بينما لا يتجاوز وقت الكهرباء التى تعطيها الحكومة ويسميها العراقيون / الوطنية/ أكثر من ساعة فى معظم الأحوال كما أن «التيار الكهربائي الذي تجهزه الحكومة يصيب الناس بالإرباك، فما أن تأتي الوطنية ويتم تشغيل الأجهزة الكهربائية البيتية حتى ينقطع التيار بعد عشر دقائق أو ربع ساعة وهو ما جعل العراق يتفرد بأن هناك « مس كول» على الكهرباء بدلا من رنة الموبايل .

وقد بدأت أزمة الكهرباء منذ عام ١٩٩١ أثر القصف الجوي والصاروخي

الأمريكي للبنية التحتية العراقية، إلا أنها استفحلت كثيرا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق بعد أن إعتقد العراقيون أن وجود الأمريكيين في بلدهم سوف ينهى أزمة الكهرباء والماء، لكن المشكلة تعقدت كثيرا، وتشابكت مثل تشابك أسلاك التيار الكهربائي في سماوات العراق عامة، وسماء بغداد خاصة.

وكان من الشائع أن صدام حسين يتعمد قطع التيار الكهربائي لإشغال وإلهاء الشعب العراقي عن الأمور السياسية من جهة، ويستخدم هذا الموضوع كعقوبة ضد أبناء شعبه، مع أن التيار الكهربائي وقتذاك كان يعمل وفق ما يعرف بالقطع المبرمج والتى لا يزيد فيها انقطاعه عن ساعتين أو أربع ساعات في أسوأ الحالات أما مع انقطاع الكهرباء لمدة تصل إلى ٢٣ ساعة يوميا فقد وجد البعض في الأزمة فرصة للكسب السريع والخيالي وظهرت طبقة أصحاب مولدات الطاقة الكهربائية الذين يثرون على حساب الناس وهناك تجار المولدات الكهربائية البيتية الذين سجلت مبيعاتهم أرباحا هائلة على مدى السنوات الماضية، ومعهم برزت في الضرورة فئة باعة وقود المولدات (البنزين والسولار) في السوق السوداء وبأسعار عالية وهم من باتوا يعرفون بطبقة « البحارة» ، كما طفت على السطح، طبقة مصلحي هذه المولدات بسبب استيراد هذه المولدات من مناشئ رخيصة وسيئة حتى توافق نسبة دخل العراقيين .

ويتوازى مع أزمة الكهرباء أزمة أخرى تضاف إلى أزمات العراقيين الصعبة للغاية، هي انقطاع مياه الشرب التي لا تصلح أصلا للشرب وغالبا ما يأتى الماء ممزوجا بالطين ذى لون مائل للبني . وفي بعض الأحيان يكون الماء مصحوبا بالحشرات الناعمة وأذكر أننى قضيت خمسة ايام كاملة فى آخر أيام مهمتى بالعراق حيث بلغت درجات الحرارة معدلات قياسية تجاوزت الخمسين درجة بدون ماء رغم صيام شهر رمضان الفضيل الذى لم يشفع للناس لدى الحكومة المنتهية ولايتها وبدلا من شراء زجاجات المياه الصحية الصغيرة منها والكبيرة لاستخدامها للشرب كنت أستخدمها أيضا للاستحمام .. وقد أعادتنى تلك الأزمة التى يعانى منها العراقيون رغم أن بلدهم تمتلك نهرين من أعذب أنهار الدنيا هما دجلة والفرات إلى ذكريات مضى عليها أكثر من ثلاثين عاما عندما كانت المياه الصحية غير متاحة لكل بيوت بلدتنا « رشيد» الواقعة على مصب نهر النيل على البحر المتوسط حيث كان الأمر يتطلب أن نحمل الجالونات الفارغة من علب السمن الهولندى وهى مكونة من الصفيح التى يوجد فى أعلاها قطعة من الخشب مثبت بها سلسلة من الحديد أو خيطا قويا من الحبل يتصل بعارضة خشبية قوية نحملها على كتف مرهقة بعد أن نملأها بالمياه من صنبور « حنفية» عمومية

توجد فى كل شارع تقريبا تسمى «حنفية السداه» ويطلق عليها اسم أقرب منزل منها فهذه « حنفية الصفتى » وهذه «حنفية عكاشة» لتخزنها فى أوعية من الفخار « الزير» التى كانت جزءا اساسيا فى كل بيت حينها .. وها أنا أرى العراقيين يمارسون نفس الطقوس ولكن بشكل حديث حيث أصبح مشهد الشاب أو الفتاة أو الرجل المسن يجر عربة خشبية صغيرة محملة بزجاجات المياه أو الجالونات البلاستيكية المملوءة بالمياه من أقرب صنبور أمرا طبيعيا لأن مياه الإسالة التى تسرى إلى داخل البيوت أصبحت شبه معدومة فى بلاد دجلة والفرات لأنها حتى وإن وجدت تتطلب الكثير من أمبيرات الكهرباء لرفعها إلى الأدوار التى تلى الطابق الأرضى .

الطريف فى الأمر أيضا هو إنتشار تجارة كانت رائجة فى ريفنا المصرى قبل إنتشار الثلاجات فى البيوت وهى بيع قوالب الثلج ، حيث لم يعد يداهمنى مشهد إنتشار بائعى الثلج الذين يفترشون شوارع رئيسية وراقية فى قلب العاصمة بغداد ناهيك عن المحافظات بطاولات حديدية تعلوها قوالب الثلج التى يجرى تقسيمها وتقطيعها بمنشار حديدى ليباع قالب الثلج كخمسة أجزاء كل جزء منها يسمى «ربع» أى أن القالب الواحد يقسم إلى خمسة أرباع ، ومن القصص الطريفة التى رافقت مشهد بيع الثلج وجرت وقائعها معى أن أحد المشترين للثلج إلتفت بإتجاهى يسألنى /ترى أستاذ الله يقبل ما يحدث للعراقيين بلد الخير لا ماء ولا كهرباء / فقلت له « الله كريم، إنشاء الله ربنا ينهى أزماتكم ويزيل الغمة فرد الرجل منفعلا « والله أستاذ مادام بائع الثلج يقسم القالب الوا حد إلى خمسة أرباع لا يمكن حال البلد ينصلح لأننا نغش عينى عينك « وكان يعنى بالطبع أن أى شيىء يقسم إلى أربعة أرباع فقط ولا يوجد شيىء يقسم خمسة أرباع وهذا يعنى وجود غش .

وقد دفعت هذه الحالة العراقيين خلال شهر يوليو من العام ٢٠١٠ بعد أن تجاوزت درجات الحرارة ٥٣ درجة إلى القيام بتظاهرات عارمة شملت معظم مناطق العراق وأطلق عليها « انتفاضة الكهرباء» حيث حمل المتظاهرون نعوشا رمزية كتب عليها الكهرباء وأحيانا « الماء والكهرباء» بالإضافة إلى رفع لافتات منددة بالحكومتين المركزية والمحلية مطالبين بإقالة وزير الكهرباء كريم وحيد الذى إستقال فعلا تحت ضغط الأزمة التى بلغت ذروتها فى مدينة البصرة الجنوبية العائمة على بحر من النفط حيث سقط خلال المظاهرات قتلى وجرحى كما سقط ١٤ جريحا في صفوف الشرطة خلال تظاهرة في مدينة الناصرية مركز محافظة ذى قار / ٣٦٦ كم جنوب بغداد/ وتخلل التظاهرة اعمال شغب عندما قام عدد من المتظاهرين برشق مبنى مجلس المحافظة بالحجارة، الأمر الذي استدعى

تدخل قوات مكافحة الشغب واستخدمت الشرطة خراطيم المياه لتفريق المتظاهرين بعد أن وضعت حواجز واسلاك شائكة حول مبنى مجلس المحافظة.

والغريب فى الأمر أنه توجد في محافظة ذي قار احدى اكبر محطات توليد الطاقة الكهربائية في العراق.

كما خرج المئات من أهالي كربلاء / ١٠٨ كم جنوب بغداد/ في تظاهرة احتجاج على عدم وفاء المسؤولين بوعودهم بتحسين التيار الكهربائي وتردي الخدمات وحمل المتظاهرون ، الذين طافوا شوارع المدينة ثم اتجهوا إلى مقر مجلس المحافظة ، شعارات طالبوا فيها الحكومة بالغاء تسعيرة الكهرباء الجديدة ، ورددوا «لاكهرباء لاماي كلهم حرامية » وين الكهرباء يا دولة الفانوس » وقدموا مطالبهم للمجلس وخرج مئات المواطنين في الرمادي مركز محافظة الأنبار/ ١١٠ كم غرب بغداد/ في تظاهرة احتجاج على تردي الكهرباء في المحافظة وطالب المتظاهرون بتوفير حصة عادلة وكافية من الكهرباء للمحافظة والموافقة على المشاريع الإنتاجية في مجال الكهرباء التي قدمها مجلس المحافظة . كما طالبوا برفع دعوى قضائية ضد وزير الكهرباء بتهمة الاهمال وهدر المال العام .

وإذا كانت تلك الإنتفاضة قد أعلنت الحرب على المسئولين العراقيين رغم استمرار غياب الكهرباء وإعتبارها بحكم الميت منذ سبعة أعوام إلا أن الوقائع على الأرض تشير إلى وجود عامل آخر مهم لا يمكن تجاهله وراء هذه الانتفاضة الجماهيرية وهو أزمة الصراع السلطوي بين قادة القوى السياسية والذي أصبح أمرا لا يطاق وخصوصا بعد أن اكتشف الجميع بأنه لا يتعدى أطماع الهيمنة على مناصب القوه والنفوذ في العراق الجديد .

وقد حدا هذا الأمر بصحيفة «وول ستريت جورنال الأمريكية » إلى نشر تقرير بتاريخ ١٢تموز/يوليو ٢٠١٠ حثت فيه المسؤولين العراقيين على حل مشكلة الكهرباء لأن «تأمين الكهرباء اللازمة للمدنيين هو المفتاح للحفاظ على الاستقرار عندما ينسحب الأمريكيون من العراق».

ونقل التقرير عن المهندس السابق في الجيش البريطاني هاميش ماكنينش، والذي خدم كمستشار في شؤون الطاقة لقادة قوات التحالف في العراق بين العامين ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، قوله « أن إقالة الجنرال الأميركي ستانلي ماكريستال من منصبه حتما ستغيّر حياة الجنرال ديفيد بتراوس»، ولكن عليه أن «ينظر بعين القلق إلى استقالة وزير الكهرباء العراقي كريم وحيد».

وبعدما ذكّر بمدى معرفة بتراوس «بأهمية الكهرباء في حياة العراقيين»، ومدى

معرفته بأن «تأمين الطاقة سيقلّص الدعم لحركات التمرّد، فضلاً عن تنشيط الاقتصاد»، كتب ماكنينش أن «بتراوس والسفير الأميركي ريان كروكر ذكّرا القادة العراقيين، باستمرار وإلحاح، بأن عليهم تأمين الكهرباء إلى منازل العراقيين».

هي نصيحة لقيت الدعم المناسب، سواء في الموارد أو التقنيات، وبالنتيجة تم ضبط «هيكلية الكهرباء في البلاد»، وتم «وضع خطة لتنمية هذا القطاع»، ما أثار الأمل في النفوس، حسبما قال ماكنينش.

ولكن، ماذا حصل بعد الأشهر الـ١٨ الأخيرة؟ وأجاب ماكنينش «لم يستمر التطوير، والعديد من العراقيين لا يحصلون على الكهرباء سوى لأقل من ست ساعات يومياً»، آخذاً على «القيادة العراقية عدم أخذها ملف الكهرباء على محمل الجد».

وبعدما أشار إلى ما قاله رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بأن «شركتي جي.اي وسيمنز أنهيتا بناء محطات للكهرباء»، قال الكاتب في «وول ستريت جورنال» أن «الحقيقة المرة هي أن لا جي.آي ولا سيمنز تقومان ببناء محطات للكهرباء في العراق».

وشرح ماكنينش أن الشركتين «تلقيتا طلبات من الحكومة العراقية من أجل تأمين مولّدات الطاقة»، لكن «صناعة المولّدات تكلّف نصف ما تكلّفه صناعة محطة كهرباء»، كما أن «صناعة المولدات هي الجزء الأسرع في صناعة محطة للطاقة»، التي هي من اختصاص «مهندسين وشركات بناء، لم تختر الحكومة العراقية أياً منها، من أجل البدء بالمهمة».

وبدا ماكنينش متشائماً في تقريره في «وول ستريت جورنال»، كاتباً أنه «حتى لم تم توقيع عقد من أجل بناء محطة للكهرباء غداً، وبدأ العمل بأكبر سرعة ممكنة»، سيكون العراقيون أمام «شوط طويل قبل الحصول على كهرباء مستدامة، خلال عامين»، وهي المدة التي تحدّث عنها المالكي.

وختم ماكنينش تقريره في «وول ستريت جورنال» بالحث على ضرورة «ضمان الوصول المناسب للكهرباء، إلى المدنيين العراقيين، لأن ذلك قد يكون العنصر الوحيد الأكثر أهمية في الحفاظ على السلام والاستقرار في العراق»، ما أن يبدأ «الجنود الأميركيون انسحابهم من بلاد ما بين النهرين»، وختم بوصف هذه المهمة بـ«الحيوية»، محذراً الحكومة العراقية بأنها «خسرت الكثير من الوقت، وليس بإمكانها خسارة المزيد».

ربما لا يدرك كثيرون الحجم الحقيقى لمشكلة الكهرباء التى ترافقها درجات حرارة تتجاوز الخمسين لأن حقيقة تلك المشكلات لا يتم تسليط الضوء عليها إعلاميا وهذه المشكلات تنتج عن إنفلات أعصاب الناس بسبب الضيق الشديد وهو ما

يدفعهم إلى محاولة إفراغ شحنات الغضب فينفجرون فى بعضهم البعض من خلال ردود أفعال ومواقف عشوائية وانفعالية تؤدى إلى القتل أحيانا لأتفه الأسباب .

٤ - هوا شباط

يطلق العراقيون على الشخص المتذبذب متقلب الآراء أو القضية التى لا يوجد لها حل واضح « هوا شباط» وذلك فى إشارة إلى أجواء شهر فبراير الذى يمثل المرحلة الإنتقالية بين شتاء قارس البرودة وربيع قصير يؤدى إلى صيف هو الأشد حرارة فى العالم حيث يتعرض العراق خلال شهر شباط / فبراير لرياح غريبة لا يمكن تحديد إتجاهها تصيب الإنسان بالدوار من كثرة حركتها وتعدد اتجاهاتها ويطلق على جزء منها « الريح الشرجى » أو الشرقى حيث ينطق العراقيون حرف القاف جيم بالتعطيش .. فيما يطلق على جزء آخر من تلك الرياح التى تصيب من يتعرض لها بالدوار والصداع الدائمة « ريح العجوزة» التى يجب تجنب التعرض لها بشتى السبل .

إلا أن الوضع السياسى الذى يعيشه العراق بعد الانتخابات التشريعية في ظل الازمة السياسية بسبب الصراع بين القوى السياسية الفائزة على منصب رئيس الحكومة ،أمر لا يمكن الفكاك منه أو تجنبه رغم أنه يصيب بالدوار مثل « هوا شباط» من شدة التناقضات وتعدد الإتجاهات التى يعجز أى محلل مهما بلغت قدرته على التحليل أن يحدد سيناريوهات واضحة لمستقبله ولو على المدى القريب ،مما أنتج أزمة خانقة في جميع مرافق ومؤسسات الدولة وهياكلها ، بعد أن اخذ كل طرف يناور بالهجوم تارة والتراجع تارة أخرى من اجل الفوز بالسلطة ، وتزايدت نسبة الاحتقان والجمود السياسي بين مختلف الفرقاء الفائزين في الانتخابات التشريعية التي تعتبر الركيزة الاساسية لتشكيل المشهد السياسي العراقي خلال السنوات الأربع المقبلة.

ولا تبتعد دول الجوار كثيرا عن المشاركة فى خلق حالة « هوا شباط» لما لها من دور مهم في خلق هذه الازمة وإطالة أمدها بتغذية الصراع بين القوى السياسية وزيادة الهوة بدلا من جسرها مما يؤدى إلى تفسخ المجتمع العراقي وانشطاره ، مستغلين بذلك التناحر المذهبي ضمن سياقات سياسية في العراق.

ولعل عجز الشركاء السابقين إبان المعارضة عن التوصل إلى تقاربات تتيح إنهاء تلك الحالة من عدم اليقين ومكافأة الناخب العراقى الذى تحدى كل المخاطر وخرج فى عرس إنتخابى شهد له العالم هو ما أدى إلى فتح المجال واسعا أمام كافة القوى الإقليمية والدولية للتدخل فى العملية السياسية العراقية لتكون جزءا من المشكلة بدلا من أن تكرس دورها فى الحل واصبحت حجر عثرة في عملية

تشكيل الحكومة العراقية ،بينما تتحرك كل جهة سياسية عراقية لمصلحة دول بعينها أو عدة دول تريد أن تمرر اجندتها ومشاريعها الخاصة ، حيث تعمل هذه الدول بجهد ومثابرة على تأسيس قاعدة سياسية واقتصادية بشكل متين في العراق من اجل تحقيق مصالحها سياسيا واقتصاديا وأمنيا بعيدا عن مصلحة المواطن العراقي الذي يحلم بالامان والاستقرار والخدمات التى لا يملك حتى حق المطالبة بها وهو ما يظهر جليا فى المعاملة القاسية التى يتعرض لها المشاركون فى أى تظاهرة تطالب بالخدمات سواء فى الجنوب الشيعى أو الوسط السنى والتى كان آخرها إصابة العشرات من المتظاهرين خلال مسيرة احتجاجية فى مدينة الناصرية مركز محافظة ذى قار / ٣٦٦ كم جنوب بغداد/ والتى تمثل قلب الجنوب الشيعى يوم السبت ٢١ أغسطس ٢٠١٠ بعد أن طفح الكيل من إنعدام الخدمات الأساسية خاصة الماء والكهرباء ناهيك عن تدهور الوضع الأمنى وظهور ميليشيات مسلحة تطلق على نفسها « سيف الحق» التى تمارس عملها فى وضح النهار مما يعيد للأذهان ايام الدم والنار التى عاشها العراق حتى منتصف العام ٢٠٠٨ بسبب الصراع الشيعى - السني .

ومما يزيد الموقف ضبابية هو ذلك السيل من التصريحات التى تأتى من كافة الأطراف تارة تعلن عن تحالف سرعان ما يتم نفيه وتارة تعلن عن تعثر سرعان ما يتم نفيه أيضا ليزف تصريح آخر البشرى بقرب التوصل إلى توافقات لتشكيل الحكومة ثم يخرج علينا قياديون نافذون فى كتل نافذة ليؤكدوا بعد مرور أكثر من خمسة أشهر على الانتخابات النيابية التى جرت فى ٧ مارس ٢٠٠٣ أن كل ما يجرى هى مشاورات تحضيرية ليست رسمية وإنما هى مجرد اجتماعات لطرح الرؤى والأفكار ومحاولات التقارب وهو ما جعل الديمقراطية التي استبشر بها العراقيون لبناء دولتهم على أسس حقيقية ومعايير سليمة تتحول إلى كابوس ثقيل جاثم على صدورهم بسبب ما يعتبرونه عدم اهلية الاحزاب والقوى السياسية العراقية لاستخدامها الاستخدام الأمثل لمصلحة بلدهم نتيجة عدم ثقة هذه القوى السياسية ببعضها البعض والتي تكالبت على بعضها البعض لاستحصال حصصها من الغنيمة من جهة ، ومن الجهة الأخرى إنهم يسبحون دائما في فلك سياسات الدول المجاورة ويعملون وفق اجنداتهم ، حيث يحاولون أن يمرروا مشاريع الدول الاقليمية من خلال استلام السلطة والاعتماد عليهم للاحتفاظ بكراسيهم من خلال دعمهم ماديا ومعنوياً .

والغريب فى الأمر هو عودة نبرة « الله يرحم زمن صدام حسين » سواء على لسان السنة أو الشيعة بعد أن اصبح واضحا امام الجميع بان كل طرف يحاول أن ينفرد بالسلطة دون مشاركة الاخرين في القرارات الحاسمة وهو ما جعلهم

يقولون أن ما كان يفعله صدام حسين يجرى الآن ، هى مجرد غنيمة يريدها الجميع بعد أن إحتدم الصراع حول موقع رئيس الوزراء ، حيث يصبح المسؤول الاول في الدولة ويتخذ القرارات منفردا محاولا دعم موقعه ونفوذه داخل السلطة ويستثمرهما لمصلحته الشخصية والحزبية ، وتقريب المقربين والمتزلفين له ليحتلوا المناصب المهمة رغم أنهم لا يملكون أية إمكانيات مهنية حقيقية .

وقد ضرب الصراع السياسي على السلطة فى مشهد لا يمت بصلة للديمقراطية ولا يجسد مفهوم التداول السلمي كل القوانين، فلا حساب لجداول زمنية دستورية يجب على الكتل السياسية العراقية الالتزام بها ، ولا حساب لبلد يئن مواطنوه تحت ضغط الظروف القاسية ، ولا حساب لعدم وجود برلمان يحاسب الحكومة على ما تفعل ، فقط يخرج المسئولون المنتهية ولايتهم والذين لا يقرون بإنتهاء تلك الولاية باسمين يؤكدون أن الأوضاع على ما يرام وأن ما يجرى هو مظهر من مظاهر الديمقراطية الوليدة التى سوف تصبح نموذجا يحتذى فى كل دول المنطقة .. فيما يضرب المواطن العراقى رأسه غيظا مما يجرى بعد أن أصابه الدوار من تشابك الأمور وتضارب التصريحات وهو ما يضع العراق على كف عفريت .

وكانت الجلسة الاولى لمجلس النواب العراقي قد انعقدت في ١٤ حزيران/يونيو ٢٠١٠ ، واقتصرت على أداء الاعضاء اليمين الدستورية جماعيا بعد اعلان الفصل التشريعي الجديد، واستثني من اداء القسم اعضاء السلطة التنفيذية بمن فيهم رئيس الوزراء ونائباه ونائبا رئيس الجمهورية.

وانتهت المدة الدستورية المحددة لاختيار رئيس الجمهورية ، بعد أن تم تجاوز المهلة المحددة لاختيار رئيس مجلس النواب والتي كانت مقررة خلال ١٥ يوما من انعقاد جلسة النواب الاولى واعلن في بغداد تمديد مدة الجلسة المفتوحة (١٥) يوما اضافية لاعطاء فرصة للكتل السياسية التوصل إلى اتفاق بشأن تسمية الرئاسات الثلاث وحسم ملف تشكيل الحكومة ويبقى التناقض حتى بين الخبراء القانونيين حول مدى دستورية وقانونية ما يجرى من إختراق لكل المواعيد الدستورية الواضحة كما يستمر الخلاف حول تفسير المحكمة الإتحادية للمادة رقم ٧٦ من الدستور العراقى والخاصة بتكليف الكتلة الأكبر لتشكيل الحكومة فالقائمة العراقية التى يتزعمها إياد علاوى ترى أنها الكتلة الأكبر لفوزها بأكبر عدد من المقاعد النيابية (٩١ مقعدا) ، بينما يرى ائتلاف دولة القانون بزعامة نورى المالكى أنه بتحالفه مع الائتلاف الوطنى الشيعى يكون الكتلة الأكبر ويحق له تشكيل الحكومة ولا يوجد من يرجح أحد الرأيين لتبقى القضية تائهة فى أروقة عقول الشركاء السياسيين.

وفى الوقت الذى يعلن فيه ستيف لانزا المتحدث باسم الجيش الأمريكى جاهزية القوات العراقية لتسلم المهام الأمنية والحفظ على استقرار البلاد تعلن وزارة الخارجية الأمريكية عن إعادة استقدام الآلاف من شركات الأمن الخاصة للقيام بدور فى الحفاظ على الأمن بالعراق رغم ارتكاب تلك الشركات جرائم قتل وتنكيل وتهريب للأسلحة وغير ذلك من الانتهاكات وهو ما يعكس حقيقة الشكوك الأمريكية فى قدرة العراقيين وقواتهم الأمنية على ملىء الفراغ الذى تركه تخفيض عدد القوات الأمريكية إلى خمسين ألف جندى داخل قواعد محددة بمختلف مناطق العراق بنهاية أغسطس ٢٠١٠ .

ويستمر « هوا شباط » الأمنى ليعلن رئيس أركان الجيش العراقى الفريق أول بابكر زيبارى وهو كردى أن القوات العراقية لن تكون جاهزة لتولى مسئوليتها الأمنية قبل عام ٢٠٢٠ وأن هناك حاجة ماسة لتواجد القوات الأمريكية ومشاركتها فى الحفاظ على الأمن ، ويسارع رئيس الوزراء العراقى المنتهية ولايته بصفته القائد العام للقوات المسلحة العراقية لينفى تلك التصريحات ويؤكد أن ما أعلنه رئيس الأركان هو رأى شخصى وأن القوات العراقية على أهبة الإستعداد لتولى مسئولياتها وملئ الفراغ الأمنى الذى خلفه الانسحاب الأمريكى وفق الخدلط المتفق عليها التى تضمنتها الاتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن ، فيما يفاجأ الشارع العراقى بين يوم وآخر بهجوم إنتحارى أو تفجير مروع يسقط فيه العشرات وربما المئات بين قتيل وجريح بمن فيهم عناصر القوات الأمنية .

وكان أسوأ الهجمات وإن كان عدد ضحاياه ليس الأكبر هو عندما شن مسلحون مجهولون هجوما نادرا من نوعه ضد حشد من الجنود العراقيين داخل حي الأعظمية الذى تقطنه أغلبية سنية شمال العاصمة بغداد ، ورفعوا لفترة موجزة علم تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، بالقرب من نقطة تفتيش تابعة للجيش.

وحمل الهجوم والمعركة التي اندلعت في إثره لعدة ساعات وخلفت ستة جنود عراقيين على الأقل قتلى، أصداء الصدامات التي عصفت ببغداد في خضم الحرب الطائفية عام ٢٠٠٧، وبدأ الهجوم مع اقتراب مسلحين يحملون مسدسات مزودة بكواتم للصوت من نقطة تفتيش تابعة للجيش في حي الأعظمية المحاط بمتاريس وحوائط أسمنتية عالية ، وأصابوا أربعة جنود إصابات قاتلة، وعندما هرع جنود وقوات شرطة إلى الموقع للتحقيق في الهجوم، انفجرت أربع قنابل كانت قد زرعت في وقت سابق بمختلف جنبات المنطقة، مما أسفر عن قتل وإصابة الكثير من المسعفين.. فيما شاهد سكان المنطقة رجالا ملثمين يحملون صواريخ محمولة على

الأكتاف (آر بي جي) يتجولون بالشوارع بالقرب من مواقع التفجيرات بينما كانت شاحنات الشرطة تحترق وهو ما يؤكد فرضية عدم الجاهزية الأمنية خاصة مع تكرار هذا الحادث فى منطقة ساحة اللقاء بحى المنصور غربى بغداد والذى كان أحد أهم معاقل تنظيم القاعدة وذلك خلال شهر يوليو ٢٠١٠ .

وبينما تؤكد إيران على أعلى مستويات القيادة فيها معارضتها التدخل فى الشأن العراقى وانها تقف على مسافة واحدة من كافة الأطراف وهو ما أكده قياديون بالتيار الصدرى عندما أعلنوا أن تواجد زعيم التيار مقتدى الصدر بإيران ليس له أى تاثير على قراره بخصوص قبول أو رفض تجديد الولاية لنورى المالكى أو تأييد شخص دون آخر لتولى منصب رئاسة الحكومة نشرت جريدة الشرق الاوسط يوم ٢٩ يوليو ٢٠١٠ نقلا عن مصدر مطلع وموثوق أن إيران بغلت حلفاءها في المجلس الأعلى الإسلامي بزعامة عمار الحكيم والتيار الصدري بزعامة مقتدى الصدر رسالة شديدة اللهجة ، مفادها أن لا خيار أمامهم سوى قبول نوري المالكي، رئيس الوزراء المنتهية ولايته زعيم ائتلاف دولة القانون، مرشحا لرئاسة الحكومة المقبلة.

وأضاف المصدر، وهو قيادي في الائتلاف الوطني الذي يتزعمه الحكيم، لصحيفة الشرق الاوسط أن الرسالة الإيرانية كانت «ستقبلون بالمالكي حتى وإن ضربكم على رؤوسكم». وحسب المصدر فإن مقتدى الصدر «منع من السفر إلى أربيل عاصمة إقليم كردستان للاجتماع بعدد من الأطراف السياسية في البلاد».

وقال ــ مشترطا عدم ذكر اسمه لحساسية الموضوع : أن الصدر أراد السفر إلى أربيل «لكن ضغوطا مورست عليه من قبل إيران منعته من السفر بسبب مواقفه الأخيرة الرافضة للمالكي وتقاربه مع القائمة العراقية بزعامة رئيس الحكومة السابق إياد علاوي»، رافضا الكشف عن المزيد من التفاصيل.

إلا أن قياديا في التيار الصدري أكد أن الصدر «لا يسمح بممارسة أية ضغوط عليه من أية جهة وهو يتصرف بحرية في توجهاته السياسية». ونفى أن تكون إيران منعت الصدر فعلا من السفر إلى أربيل وقال : «إن جميع التيارات تمارس حريتها في التوجه حتى وإن كانت هناك أجندات أميركية أو إيرانية داخل البلاد فإنها لن تكون على حساب الأجندات الوطنية».

وأكد أن الضغط باتجاه أن يكون المالكي رئيسا للوزراء «لا مانع فيه لكن مع وجود تطمينات من قبل المالكي بأنه سيغير سياسته الحكومية، وبما أن هذا الأمر لم يتم من قبل المالكي فإن ترشيحه لولاية ثانية مرفوض من قبل التيار». وحول ما إذا مورست ضغوط على الصدر قبيل سفره إلى دمشق واخترقها الصدر لكسر الحاجز، قال المصدر

: «لم تمارس أية ضغوط. السيد مقتدى قرر السفر إلى دمشق بناء على دعوة من الرئيس السوري بشار الأسد والتقى بقيادات عراقية لترطيب الأجواء وحلحلة الأزمة السياسية وفعلا تم له ما أراد، وبشأن زيارة أربيل أيضا فإن الصدر تحدث مع بارزاني الذي وجه إليه الدعوة ولكن لم يحدد الصدر تاريخها بعد» [1].

ورغم ما يعرفه الجميع من تأييد أمريكى لرئيس القائمة العراقية إياد علاوى لتولى رئاسة الحكومة إلا أن علاوى نفسه أكد فى تصريحات صحفية أثناء زيارته المفاجئة لموسكو والتى التقى خلالها القيادات الروسية أن أمريكا تريد رئيسا لحكومة العراق ترضى عنه إيران فى إشارة إلى إحتمال وجود صفقة يجرى التفاوض بشأنها كما أن هذا التصريح يعبر عن يأس من تدخل حقيقى من جانب الإدارة الأمريكية لحلحلة الأزمة وإنهاء الجمود السياسى وإجبار الأطراف المشاركة بالعملية السياسية على تنفيذ الإستحقاقات الإنتخابية وتكليف القائمة العراقية الفائزة بأكبر عدد من الأصوات بتشكيل الحكومة وهو ما يعنى استمرار الجمود السياسى إلى أجل تحدده طهران وواشنطن .

المتسابقون يواصلون مشوارهم ، والمواطنون يواصلون ضرب الرأس بحائط الواقع غير قادرين عن تجنب « هوا شباط «السياسى ومن يتتبع المشهد العراقي خاصة بعد زيارة وفد الكونجرس الأمريكي ونائب الرئيس صاحب خطة التقسيم الشهيرة للعراق جو بايدن يمكن أن يستنتج أن امريكا لازالت حريصة على أن لا تتدخل مباشرة في تشكيل الحكومة لكنها تركت وصاياها وما ترغبه على طاولة الفرقاء وستعود اليها لاحقاً لتضمن الحصول على أقل الخيارات مرارة بالنسبة لصالحها التي يهددها التحالف الإيراني السوري وهو ما يجعل الأمر يبدو معقداً لكنه فى نفس الوقت يحمل عوامل انفراجه .

التحالف الوطني الذي كان يعاني من مأزق أكثر من مرة أدى إلى توقف المفاوضات بين مكوناته الشيعية الخالصة المدعومة إيرانيا / ائتلاف دولة القانون «المجلس الأعلى الإسلامى «التيار الصدرى ، تيار الجعفرى « الإصلاح» ، حزب الفضيلة ، حزب الجلبى» المؤتمر الوطنى» / وذلك بسبب إسم مرشح رئاسة الحكومة حسم موقفه بعد مرور أكثر من سبعة أشهر من الجدل والمعارضة بقبول المالكي .

(١) اعترف مقتدى الصدر في بيان أعلن فيه قبوله تأييد ترشيح نوري المالكي لرئاسة الوزراء لمرة ثانية أن هذا الأمر جاء بعد ضغوط قاسية مورست ضده للقبول بالمالكي الذي جرى تكليفه رسميًا يوم ١١ نوفمبر ٢٠١٠.

ائتلاف العراقيـــة الذى يضم خمســـة كيانات على راسها تجمع اسامة النجيفى « عراقيون» وحركة طارق الهاشمى « تجديد» كل منها يطمح أن يكون ممثلاً للسنة بعد إنفراط أكبر تكتل للعرب السنة « جبهة التوافق » بسبب تجربتها المريرة خـــلال السنوات الأربع الماضية / ٢٠٠٦ – ٢٠١٠ /ولم تطرح تلك المكونات على طاولة الائتلاف حصـــة كل طرف مـــن كعكـــة الحكومة سوى اتفاقهـــا مرحلياً أن يكـــون ايـــاد علاوي مرشحها لرئآسة الوزراء بالرغم مـــن انـــه لم يكن قـــادراً علـــى الأحتفـــاظ بجميع كيانات القائمة العراقيـــة خلال السنوات الأربع الماضية وأدت الخلافـــات إلى انفراط عقدها .

وقد فسر لى أحد كبار مستشارى رئيس الوزراء العراقى نورى المـــالكى كيـــف كان ينظر التحالف الشيعى إلى ائتلاف «العراقية » ويلعب بالوقت مراهنـــا علـــى تفككه وإنفضاضه من حول زعيمه علاوى فقال :« أن إئتلاف العراقيـــة بأغلبيتـــه السنية يشبه الرأس وفوقها طربوش والأسهل فى هذه الحالة الإحتفـــاظ بـــالرأس والإطاحة بالطربوش حتى يمكن التفاهم » ويعنى بهـــذا أن عـــلاوى الشـــيعى لا يمتلك سوى عددا محدودا من النواب يمثل حركة الوفاق الوطنى التى يرأســـها بينما تتكون الكتلة العراقية من أغلبية نواب يمثلون الطائفة السنية ، وفى حالـــة نجاح محاولات شق الصف يمكن التخلص من علاوى الذى يمثل المنافس الأكثـــر حقا دستوريا برئاسة الحكومة لنورى المالكى وبالتالى يمكـــن أن ترضـــى المكونـــات الباقية بمنصب رئاسى هو « مجلس النواب»[1] ..

التحالف الكردستاني رفع سقف مطالبهم الذى تمثل فى ورقة ضمت ١٩ مطلبا شديدة الغلو ونجحوا في ممارسة سياسة « حافة الهاويـــة» للوصـــول إلى الحـــد المناسب لمطالبهم .

ومع استمرار « هوا شباط» سياسيا وأمنيا وخدميا كنت دائما كمراقب أصابه الدوار مما يجرى مثلما تضربنى « ريح العجوزة» أتساءل هل يمكن السيطرة علـــى هذا الشعب على المدى الطويل ومنعه من التظاهر أو إعلان العصيان ؟؟ وهـــل أن البقاء في هكذا دوامة سيقود العراقيين إلى الثورة أم أنهم ســـوف يســـتمرون فـــى انتظار مالا يجىء أملا فى أن يتغير الحال ؟؟ .

يقول مثل شعبى عراقى « شباط إن شبطت أو لبطت .. أيام الصيف غلابة » ويعنى أنه مهما طال هواءشباط أو استمرت حالة الدوار بسبب الريح المتقلبة ، حيث يشـــهد

(١) هذا ماحدث بالفعل وتولى أسامة النجيفي الذي يتزعم تجمع عرقيون رئاسة البرلمان .

اليوم الواحد فى شباط « فبراير» تقلب الفصول الأربعة على مدى ساعاته فإن أمل العراقيين لا ينقطع فى أن ينقشع هذا الهواء الذى يصيبهم بالدوار وتأتى أيام الصيف الطويلة التى وإن كانت تزعجهم بشدة حرارتها بسبب عدم توافر الكهرباء التى تتيح تبريد الأجواء بالمكيفات إلا أن رياحها الساخنة ثابتة يمكن فهمها والتعامل معها .

٥ - نصف درجة الغليان

تقول حكمة عراقية : « إن مرور الوقت الثقيل على أمة تنتظر بصعوبة يشبه القتل البطىء».

انتظر العراقيون طويلا حتى يأتى من يخلصهم من نظام صدام حسين ثم إنتظروا أن يفى المخلصون بتعهداتهم بنشر الديمقراطية وحقوق الإنسان ودعم الخدمات الأساسية إلا أن الوقائع على الأرض التى عايشتها خلال أربعة أعوام تؤشر إلى أن الإنتظار سيطول يدعمه صبر العراقيين المثير للتساؤلات على كل ما يتعرضون له من قهر وضيم وظلم وأهوال .. فكل شىء عند العراقيين يقف فى منتصف الطريق بين الإنتظار والتحرك بشكل يشبه كثيرا درجة حرارة صيفهم القائظ فهى عند نصف درجة الغليان تقريبا وإن تجاوزتها بعض الوقت .. العراقيون يقفون أيضا عند منتصف الطريق بين الصبر على ما يعانون خاصة انعدام الخدمات الأساسية والإنفجار لتغيير الأوضاع المزرية .. بينما يقف السياسيون أيضا عند منتصف الطريق بين نجاح الانتخابات البرلمانية وتشكيل الحكومة وسط حالة من عدم اليقين تدعم الجمود السياسى الذى يجرى تكريسه بشكل دائم بسبب فشل أى مفاوضات تتيح تحالفا يشكل الحكومة التى طال انتظارها .. حتى إن أحد المقترحات الأمريكية دعم نظرية نصف الطريق ونصف درجة الغليان عندما قضى بتقاسم السلطات بين الشريكين اللدودين اياد علاوى رئيس ائتلاف العراقية ونورى المالكى رئيس إئتلاف دولة القانون يتولى خلالها الرجلان منصب رئاسة الحكومة لمدة عامين أو تقاسم سلطات رئيس الحكومة من خلال تفعيل المجلس السياسى للأمن الوطنى ومنحه جزءا من صلاحيات رئيس الوزراء الذى يتمتع وفق النظام الحالى بصلاحيات وسلطات مطلقة.

٦ - تناقضات

رغم مرور سبع سنوات على إنهيار نظام صدام حسين الذى كان ومازال شماعة مثالية تعلق عليها كل المشاكل وما يعانيه العراق من إنهيار فى البنية الأساسية

والإقتصاد والأمن والعلاقات المضطربة مع دول العالم القريبة والبعيدة فقد احتل العراق المرتبة ١١٠ في قائمة أسعد الشعوب وفق المسح الذي اجراه معهد جالوب الامريكي في ١١٥ دولة.

ووفقا للمسح الذى نشرته مجلة فوربس يشارك العراق في المرتبة التي تبين حجم التحديات التي تحول دون سعادة العراقيين كلاً من ناميبيا وانغولا وارمينيا ولاتفيا فيما احتلت الصومال المرتبة ٨٥ متقدمة بذلك على العراق بنحو ٢٥ نقطة.. حيث اعتمد المسح على سؤال وجه لآلاف المواطنين وهو «ما هو مدى الرضا العام عن حياتك؟» والإجابة يجب أن تكون ما بين ١ إلى ١٠، كما اعتمد المسح على أسئلة تتعلق بالخبرة الحياتية للمواطن فى هذه الدول ومدى شعوره بالاحترام والتقدير وسهولة الحياة.

يأتى هذا فيما تدور حوارات ونقاشات السياسيين ، باسترخاء تام، وراء أبواب الغرف المغلقة المكيفة حول موائد عامرة بما تشتهى الأنفس من مأكولات ومشروبات باتت محرمة على الجماهير التى حملتهم عبر صناديق الإقتراع إلى تلك القصور الفارهة لا يشعرون فيها بما يدور خارجها ولا تلسعهم حرارة الصيف اللاهبة بدون أى حسابات للوقت أو لمعاناة العراقيين الذين يتلظون بجحيم درجات الحرارة التي تتجاوز في أيام كثيرة من أشهر الصيف الطويلة الخامسة والخمسين، ووسط عواصف ترابية ترسل المئات من الأطفال وكبار السن إلى المستشفيات التي تشكو من أزمات في توفر أجهزة التنفس، يضاف إلى هذا انقطاع للتيار الكهربائي وشحة غير مسبوقة في المياه.

وفى وقت يتمتع فيه السياسيون العراقيون بامتيازات لا يحلم بها رؤساء دول أوروبية وأمريكية .. سيارات فارهة محصنة ضد الرصاص .. سيارات أخرى لحماية هذا السياسي وذاك البرلماني السابق واللاحق .. سيارات تطلق المنبهات لفتح الطريق أمام السياسي الذي يسرع للوصول إلى بيته الفاره سواء في المنطقة الخضراء أو في حي القادسية المخصص للوزراء وأعضاء البرلمان .. بيوت لا ينقطع عنها التيار الكهربائي أو التبريد، مع وفرة في المياه تسمح بملء المسابح المترفة الملحقة بفيلات حي القادسية بجانب الكرخ، ورواتب ومخصصات مالية تفوق كل التصورات، .. قال تقرير ميرسر العالمي لجودة مستويات المعيشة الذي صدر فى نهاية مايو ٢٠١٠ أن بغداد ما تزال أسوأ مدن العالم من حيث جودة مستويات المعيشة واحتلت الرقم ٢٢١ من بين مدن العالم على الرغم من تحسن نقاطها بشكل ضئيل (من ١٤٠٤ إلى ١٤٠٧ عام ٢٠١٠)،

واضاف التقرير « لا يزال لعدم الاستقرار وتدني مستويات الأمن الأثر السلبي على جودة مستويات المعيشة في المدينة، كما أن نقاطها ما تزال بعيدة جدا عن ثاني أسوأ مدن القائمة، وهي بانغوي في جمهورية إفريقيا الوسطى .

ومن حيث البيئة جاءت في أدنى مراتب القائمة أنتاناناريفو في مدغشقر (٢١٧) بمجموع ٧ .٣٩ نقطة، بينما جاءت بغداد في المركز ٢١٤ بمجموع ٥ .٤٠ نقطة .

وتصنف الدراسة الناحية البيئية بناء على توافر المياه وصلاحيتها للشرب والتخلص من النفايات ونوعية أنظمة مياه الصرف الصحي ومدى تلوث الهواء والازدحام المروري.

كما بقيت بغداد (٢٢١) في أسفل القائمة على الرغم من تحسن نقاطها بشكل ضئيل (من ٤ .١٤ إلى ٧ .١٤ هذا العام)، حيث لا يزال لعدم الاستقرار وتدني مستوى الأمن الأثر السلبي على مستويات المعيشة في المدينة .

وتقول ميرسر أن تقريرها يعتمد على تحليل ظروف الحياة وفقاً لـ ٣٩ عاملاً مصنفة في ١٠ فئات هي (١) البيئة السياسية والاجتماعية (٢) البيئة الاقتصادية (٣) البيئة الاجتماعية والثقافية (٤) الصحة والنظافة (٥) المدارس والتعليم (٦) الخدمات العامة والنقل (٧) الترفيه (٨) السلع الاستهلاكية (٩) الإسكان (١٠) البيئة الطبيعية .

الغريب فى الأمر هو أن الحكومة العراقية التى تعترف بإخفاقها فى توفير الخدمات والحفاظ على الاستقرار الأمنى الهش تسعى جاهدة لاستضافة القمة العربية عام ٢٠١١ حيث خصص مجلس الوزراء العراقي ٣٠٠ مليون دولار استثناءً من التعليمات كسلفة لتغطية تكاليف إعداد المؤتم استعدادا لاستضافة القمة الأمر الذى أثار استياءا شديدا لدى المواطنين يمكن أن يوسع الهوة بين العراقيين ومحيطهم العربى بدلا من التقريب الذى تسعى إليه القمة العربية حيث تشير كافة الحوارات بين المواطنين إلى أن الحكومة فضلت استضافة القمة العربية كحدث دعائى وخصصت لها ملايين الدولارات بدلا من توجيه تلك الملايين إلى تحسين الخدمات الأساسية شبه المنعدمة .

وقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط يوم ١٩ أغسطس ٢٠١٠ تقريرا رائعا يرسم صورة واضحة المعالم لهذا التناقض الذى يصل إلى حد التضارب بين الوضع الحقيقى لمعاناة العراقيين وقرارات حكام البلاد الجدد قالت فيه أن النخبة السياسية العراقية، التي مكنها الغزو الأمريكي واستأمنها على مستقبل البلاد، بدأت في توجيه النقد الشديد لنفسها، وهذا نذير شؤم للبلاد التي أصبح يسيطر عليها الخوف من حدوث أزمات وصراعات وحتى انقلابات جديدة بعد انسحاب القوات الأمريكية.

وفي هذا السياق، يقول نائب الرئيس العراقي القيادى فى المجلس الأعلى الإسلامى عادل عبد المهدي، الذي كان يعيش في المنفى سابقا «يجب أن نخجل من الطريقة التي نقود بها هذا البلد».

وهذا الرأي، الذي غالبا ما يردده أقران عبد المهدي بين صفوف معارضة المنفى، التي عادت إلى العراق بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠٣، ومنذ ذلك الحين تقود البلاد، يسلط الضوء على ما أصبح عليه عراق اليوم، والذي لا يزال من غير حكومة بعد خمسة أشهر من الانتخابات العامة التي كانت من المفترض أن تأتي بحكومة جديدة.

فالشعب العراقي يفتقر إلى ابسط مستلزمات الحياة وابسط الحقوق والخدمات بسبب انشغال المسؤولين بكراسي السلطة أكثر من إهتمامهم بالخدمات العامة ، جعلوا الإنسان العراقي ضحية الأزمات ، والإرهاب ، والجريمة المنظمة ، والتطرف الديني وغيرها من المشاكل خلال سبع سنوات عجاف بسبب التناحر الطائفي والحزبي ، ناهيك عن تنامي الفساد الإداري والرشوة في هياكل الدولة ، وتدمير البيئة والمنشآت الاقتصادية التى يمكن بقليل من المجهود وإستغلال الأمكانيات المادية الهائلة إعادتها إلى مركز الصدارة عالميا خاصة وأن الميزانيات المعلنة تبلغ مئات المليارات من الدولارات وهى كفيلة بأن تجعل من العراق جنة حقيقية.

٧ - الخروج

عندما كنت أنهى إجراءات الخروج من العراق فى مديرية الاقامة والتى تتطلب الحصول على إذن « مغادرة وعودة» بعد سلسلة طويلة من المراجعات والأوراق كنت أشعر بسعادة غامرة لأنها المرة الأخيرة التى سوف أتواجد فيها بهذا المكان بسبب الذكريات المزعجة التى أحتفظ بها والتى تعاود مشاكستى كلما أتيت إليه رغم وجود بعض العراقيين الطيبين فيه .. إلا أن تلك السعادة الغامرة كان يغلفها الكثير من الخوف والقلق بسبب سخونة الأجواء وتعقيدات الإجراءات الأمنية والانتشار الكثيف لقوات الأمن العراقية لدرجة إغلاق الكثير من شوارع عاصمة الرشيد بسبب نقاط التفيش التى لا تسمح بمرور أكثر من سيارة عبر إجراءات التفتيش الدقيق لكل العابرين .

ولم تمنع تلك الإجراءات المبالغ فيها كالعادة مرور المفخخات وزارعى العبوات الناسفة لتضرب العاصمة بغداد وثمان محافظات شمالا وجنوبا في سلسلة إجراءات منسقة أشارت فيها أصابع الإتهام إلى تنظيم القاعدة رغم حرمة شهر رمضان التى يجب مراعاتها إلا أن الهجمات الدامية نشرت شبح العنف من شمال

البلاد حتى جنوبها في سلسلة من التفجيرات الانتحارية بالسيارات المفخخة والعبوات الناسفة، مما أسفر عن مقتل ٦٥ عراقيا وإصابة أكثر من ٣٠٠ اخرين، بينهم عدد كبير من عناصر الشرطة العراقية وهو ما إعتبره مراقبون اول امتحان للقوات الأمنية قبل خمسة أيام من الاعلان الرسمي عن الانسحاب الأمريكي من العراق والإبقاء عن خمسين الف جندي في مهام مساندة نهاية أغسطس ٢٠١٠ .

وقد أثارت تلك التفجيرات الكثير من الهواجس لدى العراقيين من مرحلة بعد الانسحاب الأمريكى ،فالعراقيون الذين يمقتون الوجود الأمريكي على أرضهم يشعر كثير منهم بمرارة شديدة بسبب الفوضى التي خلفها الغزو الأمريكي لأرضهم ، لكنهم متوجسون مما قد يحدث في حالة خروج الأمريكيين ما لم تكن القوات العراقية جاهزة لملء الفراغ الذي سيتركونه رغم ما يراه البعض من أن الانسحاب التدريجي الذي تحدث عنه الرئيس الأمريكى باراك أوباما لا يعدو كونه خطوة تكتيكية وأن إعادة تسمية القوات القتالية الأمريكية أو إعارتها وتفويض عملها للآخرين لا تعني بالضرورة إعادة البلاد إلى أهلها وإعادة الأرض إلى أصحابها .

فبالرغم من تأكيدات الرئيس الأمريكي باراك أوباما المتمثلة في كَوْن انسحاب قواتِه من العراق سيتم حسب الجدول الذى أقرته الإتفاقية الأمنية بين بغداد وواشنطن والتى بدأ سريانها أول يناير عام ٢٠٠٩ ، إلا أن بقاء العراق على الصورة الراهنة يعزز المخاوف من انهيار شامل ، فالعراق بلد مفتت لا سلطة فيه، بلا خدمات وبلا دولة مستقلة كاملة السيادة وبلا جيش، وبلا قطاع اقتصادي قادر على النهوض زراعياً وصناعياً، وبلا منظومة تعليم وصحة .

كما أن خطة الانسحاب التدريجي للقوات الأمريكية والتي بدأت بسحب ٥٠ ألف جندي نهاية العام ٢٠٠٦ وتلاها تخفيض كبير عام ٢٠٠٧، تبدو قريبة جداً من الخطة التي نشرها مشروع البدائل الدفاعية بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٩ بعنوان « استراتيجية للخروج من المأزق العراقي » ويبدو واضحاً أن هذا الخروج الأمريكي ليس انسحابا كاملا إنما هو انسحاب جزئي متبوع بإعادة انتشار واسعة داخل العراق تهدف إلى تخفيف المخاطر الامنية على القوات الأمريكية خاصة مع سحب القوات الأمريكية من المدن والبلدات إلى داخل القواعد منتصف العام ٢٠٠٩

ولعل من المفيد ذكره أن الانسحاب العسكري الأمريكى كما جرى الاتفاق عليه مع العراقيين ، لا يتضمن بأي صورة من الصور، تعهداً حقيقياً بترك العراق للعراقيين، أي بتحقيق وعد الاستقلال الوطني الناجز والتام خاصة وأن هذا الانسحاب لا يمكن أن يتم دون ضمانات فعلية للأمريكان حول الحفاظ على

مصالحهم السياسية والاقتصادية والعسكرية أيضا ، وإلا لماذا غزت أمريكا العراق منذ البداية وقدمت كل هذه التضحيات من رجال وأموال .

وتزامنا مع مغادرتى للعراق كانت طائرة نائب الرئيس الأمريكى جو بايدن تحط فى بغداد فى محاولة جديدة لحلحلة الأمور عبر مقترحات جديدة لا يدرى أحد إذا كانت لتصحيح الأخطاء أو تكريس الأوضاع القائمة والعمل على استمرار حالة عدم اليقين التى تغلف الساحة العراقية ، كانت الحوارات مع الأصدقاء وزملاء مهنة المتاعب تدور حول مستقبل الأوضاع الأمنية والسياسية المتوترة وسيناريوهات المستقبل الغامض وهل سيستمر المنسوب العالي للعنف أم أن سيكون مرشحاً للارتفاع بعد انسحاب القوات الأمريكية من العراق ،أم أن تصحيح الأخطاء الاستراتيجية وأبرزها المشهد السياسي يمكن أن يعيد رسم السيناريوهات باعتبار أن قوات الاحتلال هي التي تغذي العنف وأن مستواه سوف ينخفض بعد انسحابها .

كانت تلك المناقشات والحوارات تدور خلال حفلات وداع جماعية وفردية من العراقيين الطيبيين غادرت بعدها بغداد للمرة الأخيرة وسط صورة مهتزة لواقع أشد اهتزازا وساحة مفتوحة على كل الاحتمالات ، يرافقنى شعور بالتوتر والقلق أبى أن يغادرنى بعد أن رافقنى طوال فترة مهمتى بالعراق التى إستمرت أكثر من أربعة أعوام ، يزاحمه شعور بالأمل فى أن ينهض العراق من كبوته كما إعتاد على مدى تاريخه العريق الممتد منذ آلاف السنين .

عندما كانت السيارة الـ«الجيمسى » تقطع الطريق البرى من بغداد إلى عمان عبر محافظة الأنبار والذى كان يسمى «طريق الموت » ، مرت آلاف الصور التى تختزنها ذاكرتى عن هذا الطريق أمام عينى ليتغلب شعور الأمل قليلا فى أن يستمر الإستقرار النسبى المدعوم أمنيا بعد إنهيار نفوذ تنظيم القاعدة وفرق الموت جزئيا ليتجاوز العراق مرحلة الهشاشة التى يمر بها ،وتذكرت قول شاعر العراق الكبير بدر شاكر السياب فى رائعته « قصيدة إلى العراق الثائر » :

يا للعراق أكاد ألمح عبر زاخرة البحار
في كل منعطف و درب أو طريق أو زقاق
عبر الموانئ و الدروب
فيه الوجوه الضاحكات تقول قد هرب التتار
والذكر عاد إلى الجوامع بعد أن طلع النهار
طلع النهار فلا غروب